الاستعارة في تفسير المحرّر الوجيز لابن عطيّة الأندلسي

دراسة بلاغيّة سياقيّة في نصوص قرآنيّة مختارة

د. ياسر محمود حمادي العبيدي

د. سلام علي حمادي الفلاحي

جامعة الفلوجة – كلية العلوم الإسلاميّة – قسم اللغة العربية

المقدمة

معلوم أنّ الاستعارة لا تنقطع دلالتها عن السياق الذي ترد فيه، الأمر الذي يحتّم على من يدرس أحوالها أن يتذوق هذا السياق والوقوف على أسرار بلاغته، ومن هنا آثرنا الوقوف عند عالم معروف بفهمه الخاص للنص القرآني؛ بغية تقصّي الدلالات الرصينة للاستعارة من جهة، والوقوف على ثقافة هذا العالم، وتذوقه للاستعارة من جهة أخرى.

وعلى وفق ما تقدّم اخترنا تفسير "المحرَّر الوجيز" لابن عطية الأندلسي؛ لاستكشاف تفكيره البلاغي، وموقفه من الاستعارة وأبعادها المعرفية والاصطلاحيّة، ومن هنا كان لنا أن نعطي البحث نوعًا من الجدَّة والطرافة المنهجية؛لذا جعلنا العنوانات الرئيسة دالة على المفاهيم السياقيّة التي تشتمل على تحليل الاستعارة بما يتوافق مع المنهج العربي وما تعارف عليه البلاغيون. ونظرًا لسعة الأنموذجات وكثرتها فقد ارتأينا أن تكون دراستنا في نصوص قرآنية مختارة، وقد حددنا معيار الاختيار من خلال اعتماد النماذج التي اتضحت فيها التسمية البلاغية، ومما تطابق مع الدلالة الاصطلاحية المعتمدة في الدرس البلاغي العربي على وجه التحديد.

من المعروف في الأوساط البلاغية –بفروعها– أنَّ رصد ظاهرة بلاغية يتعلق بالتأويل بالدرجة الأساس، وهو بدوره يتوزع على درجاتٍ متباينة: فمنها ما يرتكز على سياق ومفهومات لفظية ترابطية، ومنها ما يعتمد على السياق المحيط وما يتعلق بتعيين حال المخاطَبين والمخاطِب، وقد تبيَّنا هذه الأنواع واخترنا نماذج لندلل على دعوانا، لكن في بعض الأحيان نجد أنَّ القارئ إذا توقف عند هذه المقاربات أحس الغربة والضياع، ووجد نوعًا من المطالب لآلياتٍ جديدة تمزج بين خطوات موضوعية وأخرى قراءة تأويلية تقوم على الاختلاف والمغايرة فتقيم خطابًا مع الذات لكن شرط السيطرة على هذه الحوارية في ضمن أبنية النصّ وملء فراغاته اعتمادًا على الفهم والتفسير من جهة، وامتزاج الذات بكل حيثيات النصّ الداخلية وأبعاده الممكنة من جهة أخرى[1].

[1] ينظر التأويل الاستعاري عند عبد القاهر، أمباركة عليوات : ٣٣.

التمهيد

أولا: في أهميّة السياق القرآني

يشمل السياق ما ينتجه النص من دلالات داخل مساحته اللفظة؛ بما يقتضيه منهج النظم، وخارج هذه المساحات بما يجاورها النصوص الأخرى، ويشمل أيضًا سياق خارجي في ضوء الترابط بين النصوص زد على ذلك العوامل الأخرى العوامل الأخرى. إذ يفسر السياق في الطروحات المعاصرة على أنَّه مجموع النصوص والحوادث التي تسبق أو تواكب البنى التركيبية، وبذلك يمكن أن تكون سياقًا صريحًا أو لسانيًا، أو ضمنيًا خارج البنى اللسانية، وفي كل الأحوال سيؤدي وظيفة التأويل في الدلالات الظاهرة للألفاظ ويتيح مجالًا بلاغيًا خصبًا[٢].

وبذلك كان الحراك المعرفي في هذا الخطاب البلاغي باتجاهين اثنين، الأول: السياق اللفظي المفهومي. والآخر: السياق التعيِّني التضميني. وسيأتي التفصيل بهذا إن شاء الله.

تطور علاقة الاستعارة بالسياق: تعدّ النظرية السياقيّة بمثابة عقد الأواصر في النظر لجماليات التشكيل بين كلّ من التوجيه الغربي من جهة، وتوجيه البلاغيين والنقاد العرب قديما وحديثا من جهة أخرى، بوصفها قد اعتمدت الاستبدال والانتقال بين الدلالات الأصلية تبعًا لمقدرة منشئ النص؛ ليجد القارئ لفظًا يحل محل لفظ آخر لعلاقة اشتراك واستبدال[٣].

هذا الفهم غير دخيل على التفكير البلاغي والنقدي العربي، إذ قال لعبد القاهر الجرجاني عن الاستعارة"إنّها تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلًا، وتوجب له بعد الفضل فضلًا... وتعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعًا من الثمر وترى الجماد حيًا ناطقًا ... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنَّها قد جسمت حتى رأتها العيون"(٤).

---

[٢] ينظر السياق والنص الشعري، علي آيت لوشان: ٣١-٣٢.

[٣] ينظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. محمد جابر عصفور: ٢٠١، المركز الثقافي، المغرب، ط٣، ١٩٩٢م.

(٤)أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق محمد محمود شاكر، مطبعة المدني، ١٤١٢هـ:٤٢-٤٣.

ومن أنواع الاستعارات على وفق ما يرى ابن عطيّة "قوله تعالى[٥]: (وفتناك فتونًا)، وقوله تعالى[٦]: (ولقد فتنا سليمان وألقينا)، وتحتمل الآية هاهنا هذا المعنى لأن سؤالهم عن الشركاء وتوقيفهم اختبار ، فالمعنى ثم لم يكن اختبارنا لهم إذ لم يفد ولا أثمر ، إلا إنكارهم الإشراك ، وتجيء الفتنة في اللغة على معان غير هذين لا مدخل لها في الآية ومن قال إن أصل الفتنة الاختبار من فتنت الذهب في النار ثم يستعار بعد ذلك في غيره فقد أخطأ لأن الاسم لا يحكم عليه بمعنى الاستعارة حتى يقطع باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له كقول ذي الرمة : [الطويل]

ولَفَّ الثُّرَيَّا في مُلاءتِهِ الفَجْرُ ... ونحوه ، والفتنة لا يستحيل أن تكون حقيقة في كل موضع قيلت عليه"[٧].

---

(٥) سورة طه ٤٠.

(٦) سورة ص ٣٤.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣.

ثانيا: التعريف بابن عطية الأندلسي وتفسيره:

المبحث الأول

السياق اللفظي المفهومي:

ويتعلق بالسياق اللفظي المفهومي على أساس أنَّ ما يحدد المعنى هو مجموعة البنى اللفظية وأتلافها في نمط معين.

ومن نافلة القول نذكر حديث القدماء عن أحوال الكلمة واتساقها مع كلمة أخرى لتولد دلالات جديدة، فنقرأ: "ولكل كلمة مع صاحبتها" أي مع كل كلمة أخرى مصاحبة لها (مقام) ليس لتلك الكلمة مع ما يشارك تلك المصاحبة في اصل المعنى، "وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه" أي انحطاط شانه "بعدمها" أي بعدم مطابقته للاعتبار المناسب."والمراد بالاعتبار المناسب الأمر الذي اعتبره المتكلم مناسبا بحسب السليقة أو بحسب تتبع تراكيب البلغاء، يقال اعتبرت الشيء، إذا نظرت إليه وراعيت حاله" وأراد بالكلام، الكلام الفصيح وبالحسن، الحسن الذاتي الداخل في البلاغة دون العرضى الخارج لحصوله بالمحسنات البديعية "فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب" للحال والمقام)[٨].

ومن الاستعارات التي خرجها ابن عطية الأندلسي في تفسيره "المحرَّر الوجيز" في ضوء السياق اللفظي ما ورد في قوله تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[٩].

يرى المفسر ابن عطية الأندلسي في النصّ مجالًا للتأويل البلاغي الاستعاري، إذ أنَّ السياق اللفظي وعلاقة التراكيب تنبئ عن استعمال على غير أصل الوضع اللغوي، ورصد ملمح تشبيهي تحول إلى تشكيل استعاري، وعرض لآراء آخرين يدلل من خلالها على الأصل التشبيهي للتركيب الاستعاري، إذ قال: "وأما معنى قوله تعالى: (عرضها السماوات والأرض) فاختلف العلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تقرن السماوات والأرضون بعضها إلى بعض كما يبسط الثوب ، فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا

---

(٨) مختصر المعاني– سعد الدين التفتازاني : ١٧.

(٩) سورة آل عمران ١٣٣–١٣٤.

الله"[١٠]. ويحيل المفسر على هذا الوجه لأنه يجد أيةً أُخرى يتضح منها التشبيه وذلك في قوله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[١١].

أمَّا إذا نظرنا إلى التخريج البلاغي الممكن في النص للمفسرين الآخرين فيما سبق المفسر ابن عطية الأندلسي نجد أنَّ كثيرًا من المفسرين بيَّنوا مجال التأول في النص، فالزمخشري– مثلًا– يرى أنَّ هنالك معنى مفاد من الألفاظ على غير أصل الوضع اللغوي، لكنه أكتفى بالإشارة إلى الملمح التشبيهي والجامع في الاستعارة، وهذا ما نستشفه من قوله: (عرضها السماوات والأرض (١ أي عرضها عرض السموات والأرض كقوله) عرضها كعرض السماء والأرض (والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه وخص العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة كقوله)[١٢].

ومن نافلة القول أنَّ الزمخشري وجهها –أيضًا – توجيهًا سياقيًا بدلالة لفظية وما نتج عن مفهوم العلاقات بين التراكيب المقاربة للنص ومفهومة من قول ابن عباس في تفسير "بطائنها من استبرق"[١٣]، ففسرها ابن عباس (كسبع سموات وسبع أراضين لو وصل بعضها ببعض)[١٤].

وهذه الحدود للاستعارة امتدت إلى ما بعد ابن عطية، فأجرى الرازي هذا التركيب على غير الحقيقة، فقال: (فأمَّا وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات فمعلوم أنَّ ذلك ليس بحقيقة؛ لأن نفس السموات لا تكون عرضًا للجنة فالمراد كعرض السموات والأرض وههنا سؤالات)[١٥].

هذه التساؤلات هي ما تفتح مجالًا تأويليًا لاستنباط المعاني، لكن هذه التساؤلات لا تعني تأويلًا غير محتكم إلى سياق منضبط، زد على ذلك الابتعاد عن التأويلات غير المحتكمة إلى سياق يفرض وجه التأويل، فاستبعد الآراء التي تغرق في التأويل البعيد (قال أبو مسلم وفيه وجه

---

(١٠) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣.

(١١) سورة الحديد ٢١.

١٢) الكشاف، الزمخشري: ٤١٥/٢.

(١٣) سورة الرحمن ٥٥.

١٤ ينظر الكشاف، الزمخشري: ٤١٥/٢.

١٥ مفاتيح الغيب، الرازي: ٩/ ٥.

آخر وهو أن الجنة لو عرضت بالسموات والأرض على سبيل البيع لكانتا ثمنا للجنة تقول إذا بعت الشيء بالشيء الآخر عرضته عليه وعارضته به فصار العرض يوضع موضع المساواة بين الشيئين في القدر وكذا أيضا معنى القيمة لأنها مأخوذة من مقاومة الشيء بالشيء حتى يكون كل واحد منهما مثلا للآخر)[١٦].

فنرى أنَّ حمل التركيب على الاستعارة أقرب، لوجود التحول التشبيهي الواضح، فكأنما القول: (وجنة عرضها السماوات والأرض (أي عرضها كعرضهما وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل لأنه دون الطول وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض)[١٧]. وهو تصوير يشخص ما لا يعلم بالبديهية إلى ما يعلم بها كقوله: وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، على سبيل التشويق إلى الجنة والتشويق لحسن الصفة وإفراط سعتها التي تأبى عن الحصر[١٨].

ونقرأ قوله تعالى: (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[١٩].

مهد الامام ابن عطية الاندلسي لتوجيهه البلاغي لهذا النص بدءًا بشرح المعنى العام للآية المتعلق بأنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر المؤمنين في حكم الموصي إذا كان في سفرٍ وفيما إذا كانا شاهدين مؤمنين أم من أهل الكتاب وغيرهم، فأن عَثر خلاف رجلان من أولياء الموصي، وغُرم الشاهدان[٢٠].

رغم هذا فإنَّ المفسر يرى صعوبة الاقناع والقبول من قبل العامة وما تتلقاه أذهانهم، فالمعنى مدعومًا بالتعبير الاستعاري الذي يزيد من تركيز المعنى وفتح النص لتحريك ذهن المستمع بعد التأمل واجالة الفكر، فانطلق من البنية اللغوية للنص، وتوجيه الافعال "عُثر،

---

[١٦] مفاتيح الغيب،الرازي:٦/٩.
[١٧] تفسير البيضاوي:٩٢/٢.
[١٨] ينظر الإتقان في علوم القرآن:١٧٨/٢.
(١٩) سورة المائدة ١٠٧-١٠٨.
[٢٠] ينظر المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:٢٥٣/٢.

استحقا" توجيهًا سياقيًا يوضح امكانية أداء معان متناوبة عن الأصل اللغوي واسناد إليه معانٍ جديدة على سبيل المجاز والاستعارة، فبنى رأيه بعد استعراض اراء المفسرين السابقين عليه، ومن ثمَّ الترجيح، إذ قال: (قوله " شهادة بينكم" قال قوم الشهادة هنا الحضور، وقال الطبري بمعنى اليمين وليست بالتي تؤدي، قال القاضي أبو محمد وهذا كله ضعيف والصواب أنَّها الشهادة التي تحفظ لتؤدي ورفعها بالابتداء والخبر في قوله "اثنان")[٢١].

بعد ذلك ينتقل المفسر إلى الأوجه البلاغية التي يمكن أنْ تُستخلص من الآية الكريمة، إذ يرى (أنَّ في وقوله تعالى : { فإن عثر } استعارة لما يوقع على علمه بعد خفائه اتفاقاً وبعد « إن » لم يرج ولم يقصد)[٢٢] . هنا يتطلب فهم وتدقيق نص ابن عطية، إذ يبدو أنَّه نظر إلى طبيعة الأفعال وتوزيعها وإسنادها للمعان المطلوبة من المخاطب للتأثير في المتلقي . فوجه الاستعارة يتعلق بـ " لما يوقع على علمه بعد خفائه" وهذا إذا أُريد أن يسند بالحقيقة، يقال : فإن وجد، وقع... قياسًا منه على قولهم : (وهذا كما يقال على الخبير سقطت ، ووقعت على كذا)[٢٣].

أمَّا الاستعارة الثانية فهي في الفعل "استحق عليهم" إذ ينقل المفسر عن سابقيه، ويناقش أراءهم لاستخلاص الرأي الفصل في ذلك فنقرأ له: (ثم قال أبو علي بعد كلامه هذا : فأما ما يسند إليه « استحق » فلا يخلو من أن يكون الأنصباء أو الوصية ، أو الإثم... ولذلك جاز أن يستند إليه { استحق } ثم قال بعد كلام : فإن قلت هي يجوز أن يسند { استحق } إلى { الأوليان } . فالقول إن ذلك لا يجوز لأن المستحق إنما يكون الوصية أو شيئاً منها ، وأما الأوليان بالميت فلا يجوز أن يستحقا فيسند استحق إليهما)[٢٤].

ويخالفهم الرأي ابن عطية من خلال مراجعة هذه الآراء؛ لأنَّ ذلك يتطلب تفسيرًا آخرًا كي يستقيم الفهم، إذ يرى أنَّه (يجوز عندي أن يسند { استحق } إلى { الأوليان } . وذلك أن أبا علي حمل لفظة الاستحقاق على أنه حقيقي فلم يجوزه إلا حيث يصح الاستحقاق الحقيقي في النازلة ،

[٢١] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:٢٥٢/٢.
[٢٢] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي: ٢٥٤/٢.
[٢٣] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي: ٢٥٤/٢.
[٢٤] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:٣٦٤/٢.

وإنما يستحق حقيقة النصيب ونحوه ، ولفظة الاستحقاق في الآية إنما هي استعارة وليست بمعنى استحقا إثماً)[٢٥].

وقد وضح الزمخشري – سابقًا– هذا التوزيع والتبادل بين الأفعال بقوله: (فإن عثر "فان اطلع" على أنهما استحقا إثما "أي فعلا ما اوجب اثما واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين" فآخران)[٢٦].

والتخريج نفسه، وهذا يمتنع عند ابن عطية، إذ تعامل ابن عطية – على ما يبدو– مع الاستعمال الأول حقيقي إذا أُسند الاستحقاق إلى الاثم، أمَّا قوله "استحق" الثانية فهي وجه الاستحقاق من الغلبة، أي استحق عليه ماله، بمعنى أخذه أو شاركه فيه عنوة، وهنا يظهر دور الاستعارة عنده على وجه الظلم الذي يقع من قبل الظالم على آخر ، فكأنه يقول: استحق عليَّ مالي ومنزلي، وهنا يظهر وجه التشبيه بالمستحق حقيقية وهذا الرابط في الاستعارة[٢٧]، وهي تبعية على اصطلاح البلاغيين، فاستعمل "استحق" بدلًا من أفعال نحو: وجب، يترتب..."؛ وذلك زيادة على التأكيد والتأثير، فالشيء الذي يُفهم من "استحقا اثمًا" هو الشيء المستحق إذا كان هذا الاستحقاق عن نزاع يعدّي الفعل إلى المحقوق ب"على" الدالة على الاستعلاء والإلزام بالوقت نفسه، حتى وإن كره ذلك، فكأنَّما تضمن معنى "وجب" [٢٨]، زد على ذلك أنَّ القرينة حالية تفهم من السياق، وأنَّ الطرف التشبيهيِّ المحذوف هو "المال" فبدلًا من اسناد المال إلى "استحق" حُذف وأسند إلى الأوليان، وهنا مكمن الاستعارة التبعية[٢٩] – والله أعلم–.

ونجد هذا التخريج البلاغي عند بلاغيين ومفسرين آخرين ، حتى في مراحل تلت عصر ابن عطية، لكن بدرجات متباينة في التوسع في التخريج البلاغي، ومن ذلك ما ذهب إليه ناصر الدين البيضاوي إذ قال: (فإن عثر، "فأن اطلع" على أنَّهما استحقا إثمًا فعلًا ما أوجب إثمًا كتحريف)[٣٠]، وهذا أدراك واضح للمعاني الأخرى التي تستشف من الآية الكريمة، لكنه لم يفصل القول، بخلاف ما نجده في "التحرير والتنوير" عندما بيَّن الأصل البلاغي الذي يمكن أن يقتدى

---

[٢٥] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:٣٦٤/٢.
[٢٦] تتفسير الكشاف، الزمخشري:٧٢٠/١.
[٢٧] ينظر المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي: ٢٥٥/٢.
[٢٨] ينظر التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٧/ ٨٩-٩٠.
[٢٩] ينظر البلاغة:
[٣٠] - تفسير البيضاوي:.

به تبعًا لفهمه أراء ابن عطية وغيره، إذ شرح الاستعارة بقوله: (ومعنى) عُثِر (اطُّلِع وتَبيّن ذلك، وأصل فعل عَثَر أنّه مصادفة رِجْلِ الماشي جسماً ناتئاً في الأرض لم يترقّبه ولم يَحْذر منه فيختلّ به اندفاعُ مَشْيه ، فقد يسقط وقد يتزلزل . ومصدره العِثَار والعُثور ، ثم استعمل في الظَفَر بشيء لم يكن مترقّباً الظفَر به على سبيل الاستعارة)[٣١].

ويبدو أنَّ شيوع استعمال "عُثر" في مثل هذه المواضع أدى إلى اتساعه وشيوعه؛ فصار كالحقيقة في اصطلاح المستعملين على أساس أنَّ الأصل الشائع هو المصدر "العثار"، واصطلحوا على الاستعمال المجازي بالمصدر "العثور"[٣٢].

ويرصد المفسر ملمحًا بلاغيًا في قوله تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ

فيرى أنَّ في النص الكريم تأويلًا مجازيًا، إذ (قيل : معناه : وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله. ثم إليه يرجعون ، فحينئذ يسمعون . وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم وقرىء : " يرجعون " ، بفتح الياء)[٣٣].

وقد عدَّ ابن عطية قوله تعالى : "الموتى، يبعثهم " تشكيلًا استعاريًا، إذ قال : (فتجيء الاستعارة في هذا التأويل ، في الوجهين في تسميتهم موتى وفي تسمية إيمانهم وهدايتهم بعثاً)[٣٤]. وتوصل إلى التأويل الاستعاري من خلال النظر إلى السياق اللفظي فسر العلائق بين التراكيب بفهم وإعراب البنية اللغوية للآية، فيرى المفسر أنَّ عمل "الواو" للعطف ومشركة للعامل في "الموتى" و"الذين يبعثهم" في موضع الحال ، فكأنَّما المعنى: إنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون، والكفار كالموتى لا يرون هدى ولا يسمعون فيعون، وكذلك "يبعثهم" تحتمل معان، منها " يبعثهم الله ": بأن يؤمنوا حين يوقفهم . قد يرشدهم الله بمشيئته، ، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر[٣٥] .

أحلل الاستعارة وأُبيِّن أركانها من المسودة الورقية.

---

[٣١] تفسيرالتحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية: ٧/ ٨٩.
[٣٢] ـ ينظر التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية: ٧/ ٨٩.
[٣٣] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:
[٣٤] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:
[٣٥] ينظر المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:

وتواتر هذا التشكيل الاستعاري عند المفسرين، وذلك لما يؤديه من تصوير لمعنى وحالة من لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهمّ الأشياء، وتسويتهم بـ" الموتى" .

وهذا ما فصله في أخر المطاف صاحب "التحرير والتنوير" إذ أفاد من طرح السابقين ونظم الأفكار: فيقول : (والموتى استعارة لمن لا ينتفعون ، وهو ما يُرضي الله تعالى . و) يبعثهم (على هذا حقيقة ، وهو ترشيح للاستعارة ، لأنّ البعث من ملائمات المشبّه به في العرف وإن كان الحي يخبر عنه بأنه يبعث ، أي بعد موته ، ولكن العرف لا يذكر البعث إلاّ باعتبار وصف المبعوث بأنّه ميّت ويجوز أن يكون البعث استعارة أيضاً للهداية بعد الضلال تبعاً لاستعارة الموت لعدم قبول الهدى على الوجهين المعروفين في الترشيح في فن البيان من كونه تارة يبقى على حقيقته لا يقصد منه إلاّ تقوية الاستعارة ، وتارة يستعار من ملائم المشبّه به إلى شبهه من ملائم المشبّه)[٣٦].

وكان للمفسر وقفة طريفة في قوله تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام: (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)[٣٧]

الاستعارة التي خرجها المفسر ابن عطية هي " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ"، وذلك من الواقع السياقي اللفظي الممكن أن يفسر لنا هذا إذ قال: (ثم أمره الله عز وجل أن يضم يده إلى جنبه وهو الجناح استعارة ومجازاً ومنه قول الراجز : [الرجز]" أضمه للصدر والجناح " ... وبعض الناس يقولون الجناح اليد وهذا كله صحيح على طريق الاستعارة)[٣٨].

ويمكن أن تكون الاستعارة في الآية من خلال تحولها من بنية تشبيهية، إذ شبه الضمير في "أضمم" الذي يعود على موسى "عليه السلام" بالطائر فحذف هذا المشبه به وأبقى على احدى لوازمه "الجناح"، ويتلاءم هذا التصوير الاستعاري مع حال موسى "عليه السلام" والرهبة من ذلك المشهد ففر كطائر مفزوع، وقد ترسخت هذه المعاني أكثر بهذه الاستعارة، مع ما سبق إذ أنَّ الله سبحانه وتعالى بيَّن لموسى "عليه السلام" تكاليف النبوة فأمره بإلقاء العصا فانقلبت "حية تسعى"

([٣٦]) التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية : ٧/ ٢٠٨.

(٣٧) سورة طه ١٩-٢٢.

[٣٨] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:

فلما رآها موسى "عليه السلام" هرب وعندما أمره سبحانه وتعالى " خُذْهَا وَلَا تَخَفْ" أوجس منها فتناولها بطرف جبته فنهاه الله تعالى عن ذلك، فتضافرت هذه المعاني مع الاستعارة التي خرجها المفسر .

ولم تشكل هذه الاستعارة موضعًا خلافيًا عند أغلب المفسرين ممن نظرنا في تراثهم، فعيَّنها الزمخشري استعارةً إذ قال: (قيل لكل ناحيتين : جناحان ، كجناحي العسكر لمجنبتيه ، وجناحا الإنسان : جنباه ، والأصل المستعار منه جناحاً الطائر . سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران . والمراد إلى جنبك تحت العضد)[٣٩].

وتواتر المفسرون على هذا التصور والتخريج للاستعارة، مع تفاوت في درجات الصحة البلاغية وطريقة تخريجها، فالرازي وغيره –مثلًا– ينقل هذه الآراء، إذ قال: (يقال لك ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنه يجنحهما عند الطيران)[٤٠].

وهذا يعني أنَّ الاستعارة فتحت مجال التأمل والتفكر في عظمة النص القرآني من الوجهة البيانية، وتصوير ذلك المشهد، زد على ذلك أنَّ وصف يدي الإنسان بالجناح أقرب إلى ذلك التأول؛ لقوله تعالى في نصٍ آخر "وأدخل يدك في جيبك"– النمل: ١٢– وهذا أولى ليتسق فهم المتلقي للمعنى في ضمن سياق موحد .

النموذج الرابع عشر: (ينقل إلى موضع آخر –الموريات)

عرض المفسر ابن عطية عدة أقوال في هذه الآية ومن ذلك ما ذهب إليه علي بن أبي طالب وابن مسعود "رضي الله عنهما" وبيَّنا المقصود منه: "الإبل" وذلك أنها في عدوها ترجم الحصى بالحصى فيتطاير منه النار فذلك القدح، وفسرها ابن عباس بـ "الخيل" قال ابن عباس : هي الخيل ، وذلك بحوافرها في الحجارة وذلك معروف[٤١].

---

[٣٩] تفسير الكشاف، الزمخشري: ٦١/٣.
[٤٠] مفاتح الغيب، الرازي:
[٤١] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:

لكن المفسر عرض لدلالة الـ "الموريات" على القدح، والبيان والإظهار، ووضع هذه الدلالات في محلها السياقي اللفظي يكشف عن نوع من "الاستعارة عن البينة" إذ يستشهد بنصوص أخرى كقوله تعالى: (أفرأيتم النار التي تورون)[٤٢]وما دلت عليه اللفظة في

قول عدي بن زيد : [الخفيف]

فقدحنا زناداً وورينا ... فوق جرثومة من الأرض نار .

لذا فالمفسر ابن عطية يفضل هذه التخريجات؛ لأنه يجري هذه التراكيب على الاستعارة لما تفرضه الواقعة اللفظية والترابط السياقي لوضع النص من النصوص المجاورة، إذ تكون الاستعارة على هذا النحو: تشبيه الألسن بالشيء الذي يقدح للتدليل أكثر على شدة البيان والاظهار، وتصح من جانب أخر وهو دور الخيل التي تشعل الحرب وتطاير القدح وتناهي الحماسة المختلطة بالشرر[٤٣].

وهذا تأويل بدرجة مقبولية مناسبة، إذ أنَّ التفاسير السابقة وقفت أيضًا عند دلالة" الموريات" على النار الذي يتقادح من حوافر الخيل وصكها للحجارة الصلدة، تقول : قدح فأورى ، وقدح فأصلد ، وانتصب)[٤٤].

ومن طريف البيان في هذا التخريج أنَّ الله سبحانه وتعالى خص خيل المؤمنين بهذه الصفات ، وخص خيل الغزاة بالضبح، والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون . وعن ابن عباس أنه حكاه فقال : أح أح . قال عنترة : وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا) .

ويظهر الوجه البلاغي للاستعارة على نحو أوضح من حيث أنَّ: (الموريات قدحاً "مستعار لإثارة الحرب" لأن الحرب تشبَّه بالنار . قال تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللَّه)[٤٥]، فيكون " قدحاً" ترشيحاً لاستعارة الموريات، ومنصوباً على المفعول المطلق للموريات)[٤٦].

---

(٤٢) سورة الواقعة ٧١.

[٤٣] ينظر المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي:

[٤٤] تفسير الزمخشري : ٧٩٣/٤.

(٤٥) سورة المائدة(٦٤).

[٤٦] التحرير والتنوير، الطبعة التونسية : ٣٠/ ٥٠٠.

المبحث الثاني

السياق التعيِّني التضميني

ونقصد به السياق التعيِّني التضميني تأثيرات العوامل الخارجية في البنى التلفظية الآنية، فهو انتقال من التعيين إلى التضميين الذي تتوسع فيه المدلولات من كل قيد يقصرها على ظاهر اللفظ فيتوزع البحث ما بين الوضوح والخفاء، وعلاقة ذلك بالمعنى المبني على علاقات التشابه والاجمال والتفصيل .

أهتم كثير من البلاغيين قديمًا وحديثًا بسياق الحال، وهو ما أسموه بـ"المقام" مقتضى الحال"، وهو الشق الاجتماعي والتعييني للواقعة اللفظية مما يؤثر في دلالاتها وتفرعها إلى بنيات دلالية جديدة. فمقام الفخر غَير مقام المدح، وهما يختلفان عن مقام الدُّعاء والاستعطاف، فاعتمدوا على أثر السياق في اجلاء المعنى وتوضيحه، وبحث العلماء تغير معنى العبارة الواحدة بتغير المقام[٤٧].

ويمكن توجيه الكثير من الاستعارات على وفق هذا المنظور، ومما اخترناه الاستعارة في قوله تعالى: (في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليمٌ بما كانوا يكذبون)[٤٨]، قال المفسر: (المرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين وذلك إمَّا أن يكون شكا وإمّا جحدا بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يجحدون وبنحو هذا فسر المتأولون)[٤٩] ، فعلى ذلك يعد المفسر ابن عطية لفظة " المرض" في الآية الكريمة استعارةً، كأنَّه شبه الفساد في القلوب بالمرض؛ العبارة لزيادة أدعاء دخول المشبه" الفساد" في صفات المشبه به "المرض" واتحاده بالخصائص المشتركة مما يرسخ عمق تصور قلوب هؤلاء المنافقين –والعياذ بالله– وهذه استعارة تصريحية: حيث استعير المرض لما آل إليه حال قلوبهم من جهل وسوء المنهج والعقيدة و إلى غير ذلك من ضروب الجهل المؤدية الى سوء الخاتمة.

.

---

[٤٧] التأويل الاستعاري عند عبد القاهر الجرجاني، امباركة عليوات:٣١. - رسالة ماجستير-.

(٤٨) سورة البقرة ١٠.

(٤٩) المحرر الوجيز، ابن عطية الاندلسي: .

واختلف المتأولون في معنى قوله " فزادهم الله مرضا " فقيل هو دعاء عليهم وقيل هو خبر أن الله قد فعل بهم ذلك وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي ويظهر من البراهين فهي على هؤلاء المنافقين عمى وكلما كذبوا زاد المرض[٥٠].

وتوقف المفسر طويلا عند النص الآتي وانماز بحسن القراءة البلاغية وقلب الأوجه المجازية في قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}(٥١)

لقد بحث المفسر ابن عطية هذا النص وكان اهتمامه بادئ الأمر نابعًا من الخلاف العقائدي المتعلق بأثبات التشبيه بالصفات لله من عدمها، إذ قال: (اختلف العلماء فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالى : "بل يداه" وفي قوله : "بيدي"(٥٢)، و "عملت أيدينا"(٥٣)، و "يد الله فوق أيديهم"(٥٤)، و "لتصنع على عيني" (٥٥)، و "تجري بأعيننا"(٥٦)،و "اصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا"(٥٧)،و "وكل شيء هالك إلا وجهه" (٥٨)، ونحو هذا، فقال فريق من العلماء منهم الشعبي وابن المسيب وسفيان يؤمن بهذه الأشياء وتقرأ كما نصها الله) [٥٩].

لكن المفسر ابن عطية خرَّج وجهًا بلاغيًا استعاريًا من النص، وذلك عند أخذه بنظر الاعتبار سياق الموقف التعييني المحيط بالبنية اللغوية، وما تفرضه ثقافة واستعمالات أساليب العرب، فنستشف رأيه من خلال مقولته: (وقال جمهور الأمة : بل تفسر هذه الأمور على قوانين

---

(٥٠) التحرير والتحبير:

(٥١) سورة المائدة ٦٤.

(٥٢) سورة ص ٧٥.

(٥٣) سورة يس ٧١.

(٥٤) سورة الفتح ١٠.

(٥٥) سورة طه ٣٩.

(٥٦) سورة القمر ١٤.

(٥٧) سورة الطور ٤٨.

(٥٨) سورة القصص ٨٨.

[٥٩] المحرر الوجيز : ٢/ ٣١٦.

اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب . فقالوا في العين والأعين إنها عبارة عن العلم والإدراك ، كما يقال فلان من فلان بمرأى ومسمع ، إذا كان يعني بأموره وإن كان غائباً عنه)[٦٠].

وقد بيَّن المفسر الفائدة من الاستعارة للتدليل على إنعام الله سبحانه تعالى، كما بيَّن أركانها، إذ شبه سبحانه عز وجل جملة الانعام والإنفاق ورزق العباد "باليدين المبسوطتين" فحُذف المشبه واكتفى سبحانه تعالى بالتعبير عن المقصود بالمشبه به مخاطبًا المتلقين بخطابٍ تعييني تضميني لطرائق وأساليب لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم، فاليد قد تأتي بمعنى القدرة كما تقول العرب: لا يد لي بكذا ، وقد تكون بمعنى النعمة كما يقال لفلان عند فلان يد، وتكون بمعنى الملك كما يقال يد فلان على أرضه ، وهذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عبر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين استعمالاً لفصاحة العرب ولما في ذلك من الإيجاز[٦١]. و(عبر عنه بيدين جرياً على طريقة العرب في قولهم فلان ينفق بكلتا يديه ومنه قول الشاعر وهو الأعشى :يداك يدا مجد فكفٌّ مفيدة ... وكفٌّ إذا ما ضنَّ بالمال تنفق)[٦٢] . زد على أنَّ اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق ، يؤيد رأيه بقراءة أُخرى للنص قال أبو عمرو الداني : وقرأ أبو عبد الله "بل يداه بسطتان" يقال يد بسطة أي مطلقة ، وروي عنه "بسطان"[٦٣].

وقد أستشهد البلاغيون بهذه الاستعارة" بل يداه مبسوطتان" على الاستعارة التخيلية التي تداولها البلاغيون والنقاد تحت هذا المصطلح[٦٤].

وكانت هذه الاستعارة واضحة وليست محل نقاش بين العلماء، فقد سبق الزمخشري وعدَّها مجازًا، إذ قال: (غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجودة، منه قوله تعالى" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط"[٦٥]، ولا يقصد المتكلم به اثبات يد غل ولابسط، ولا فرق بين ما وقع مجازًا؛ لأنهما كلامان متعاقبان...)[٦٦] .

---

(٦٠)المحرر الوجيز : ٢/ ٢١٥.والنص القرآني من سورة المائدة ٦٤.

[٦١] ينظر المحرر الوجيز : ٢/ ٢١٥، ٣١٦.

[٦٢] المحرر الوجيز : ٢/ ٣١٧.

[٦٣] ينظر المحرر الوجيز : ٢/ ٣١٧، وينظر مصدر من القراءات القرآنية: ؟؟.

[٦٤] ينظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب:١٥١/١، وتنظر مصادره؟؟.

(٦٥) سورة الإسراء ٢٩.

(٦٦) تفسير الزمخشري: ٦٥٤/٢..

لقد بيَّن الزمخشري بهذا التحليل المفصل للوجه المجازي؛ ملمحًا إعجازيًا وجماليًا يتجلى في وضع القارئ عند مكمن الفصاحة والبلاغة في النص، فجعل القرينة حالية تفهم من السياق، وهي بسط اليد وقبضها، وتعاقب هذه العبارتان وقوعهما متعاقبين للبخل والجود، واستدل على صحة استعمالها استعمالًا لا يصح لليد بقول الشاعر[٦٧]:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده .

وتواترت تصورات العلماء حول هذا النص وما يحمله من قيم بلاغية، لكن بدرجات متباينة في مدى الاهتمام بالوجه البلاغي ،والاتفاق بالتسمية والاصطلاح، فيتبيّن هنا تأثير المفسر ابن عطية في ترسيخ هذه المقاربات عند المفسرين الآخرين فالرازي- مثلًا- يفسر قوله تعالى" بل يداه مبسوطتان" تفسيرًا عقائديًا محضًا بادئ الأمر، إذ نقل لآراء طريقة السلف في حمل "اليد" على الظاهر أمَّا هيئتها وحقيقتها فأمرها إلى الله تعالى ولا يعلمها إلَّا سواه، لكنه يميل إلى أراء المتكلمين- أحيانًا- عندما يعرض لتفصيلاتهم والاتجاه إلى البنية اللغوية للفظة ومن ثمَّ وضعها في ضمن سياق استعمال أساليب العرب، فيعرض لمعاني اليد، للجارحة، وللنعمة والقوة، ومنه قول العرب: لا يد لك بهذا، فلم يعدم الوجهة البلاغية تمامًا، بل يرى إن كانت الغلة "كناية" عن البخل فأنَّ رد عليه بل يداه مبسوطتان[٦٨].

فبسط اليد وغلها عند البيضاوي تعد مجازًا مركبًا؛ إذ قال: (غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إثبات يد غل وبسط ولذلك يستعمل حيث لا يتصور ذلك ... ونظيره من المجازات المركبة)[٦٩].

وهنا ننحاز إلى تحديد ابن عطية للوجهة البلاغية للنص بـ" الاستعارة" ونعده الأكثر تفصيلًا وإفادة من المتاحات السياقية لشرح وتفسير النص.

---

[٦٧] ينظر تفسير الزمخشري:٢/ ٦٨٨..

[٦٨] مفاتيح الغيب، الرازي: ٣٤/١٢.

(٦٩)أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي(تفسير البيضاوي) ٩٢/٢..

ويتضح المنحى الاستعاري عند ابن عطية على نحو أدق عند تفسير قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)[٧٠].

لقد أنعم العلماء النظر في هذا النص، ووجدوا دقةً في المعنى المتأتي من وجوه عدة منها الاستعمال الاستعاري الذي لا يدرك إلَّا بالتأمل في النص والاحالة على التأويل الدقيق، فـ (المعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن إيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل واحد منها)[٧١].

أي أنَّ التمثيل الاستعاري هنا يكمن في جعل الظلال كالإنسان بما يمتلكه من يمين وشمال، ويفيد هذا على شدة الانقياد والطاعة لله سبحانه وتعالى[٧٢] .

وقد دأب المفسر ابن عطية على الكشف عن التشكيل الاستعاري في النص بالإفادة من السياق التعييني المحيط بالنص وطبيعة مخاطبة المتلقين خطابً عقليًا، إذ يرى (والمنصوب للعبرة في هذه الآية هو كل شخص وجرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط)[٧٣].

فزاد المفسر على ما سبقه اعتماد الأصل المعار منه "البشر" مقصود بدلالة الأيمان والشمائل، لكن أَدخل معه من كل شيء له جرم كالجبال وما شابه من جهة التمثيل الاستعاري ، أمَّا كيفية التوجيه السياقي الذي أعان على هذا التأول في المعنى فنستشفه من قول المفسر: ((لكن ذكر الأيمان والشمائل هنا على جهة الاستعارة لغير البشر أي تقدره ذا يمين وشمال وتقدره يستقبل أي جهة شئت ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال وذلك في كل أقطار الدنيا)[٧٤].

---

(٧٠) سورة النحل ٤٨.

(٧١)تفسير الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :٢/ ٥٦٩.

[٧٢] ينظر تفسير الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :٢/ ٥٦٩.

(٧٣)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٣/ ٣٩٨.

(٧٤)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣/ ٣٩٨.

لذا فهو يفترض أصل ثابت يقوم عليه تحديد اليمين والشمال، ويتعامل مع الجانبين وبأي جهة استقبل، فلا يصح عنده (من ذهب إلى أن "اليمين" من غدوة النهار إلى الزوال ثم يكون من الزوال إلى المغيب عن الشمال)[٧٥]؛ لأنَّه محدد بمستقبل الجنوب.

وما اتجه المفسرون إلى هذه الوجهة إلَّا للوقوف عند هذه المعاني العميقة والتصوير المذهل لكثافة الأفياء وانتظامها على نحو مثير يمتلك أيمان وشمائل مقصود به إيضاح الحالة العجيبة للظلّ إذ يكون عن يمين الشخص مرّة وعن شماله أخرى، كل ذلك في لوحة واحدة عظيمة تخر ساجدة لله سبحانه وتعالى .

وعلى الرغم من اهتمام ابن عطية بالمنحى الاستعاري إلَّا أنَّه لم يكن متحمسًا جدًا لتأويل جميع النصوص التي تتوفر بها احتمالية التأويل من ذلك قرأته لقوله تعالى: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)[٧٦].

فالاستعارة في النص" يرهقهما" وعدَّها استعارةً قياسًا بغيرها، إذ قال : (والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ، وإن كان اللفظ يدافعه ، أنها استعارة ، أي على ظن المخلوقين والمخاطبين، لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين)[٧٧] ، لكنه عندما وضع النص في ضمن سياقه المحيط به والمتعلق بقراءة ابن مسعود يجده يقول: (وقرأ ابن مسعود « فخاف ربك » وهذا بين في الاستعارة وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من لعل وعسى : فإن جميع ما في هذا كله، من ترج وتوقع، وخوف، وخشية، إنما هو بحبكم أيها المخاطبون، و "يرهقهما" معناه يحثهما ويكلفهما بشدة ، والمعنى أن يلقيهما حبه في اتباعه)[٧٨].

---

(٧٥)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣/ ٣٩٨.

(٧٦)سورة الكهف ٧٩-٨٢.

(٧٧)المحرر الوجيز :٤/ ٣٣٣..

(٧٨)المحرر الوجيز :٤/ ٣٣٣.

فلطافة الاستعمال اللغوي مع الأبوين المسكينين تنبع من لطف الله سبحانه وتعالى بحاليهما فاختار لهما لفظًا غاية في الرقة والرحمة، فبدلًا من أن يستعمل معهم أفعالًا" حث، وكلف..." ترفق بهم واختار لهم أفعالًا تلائم هذا المشهد، وهذا التناوب في اختيار الافعال يطلق عليه بالاستعارة التبعية والجامع في الاستعارة " أن يلقيهما ويكلفهما حبه حثهم واتباعه" فشبه حالهم عند اتباعه وما يحصل لهم بالإرهاق فاستعير فعل من جنس الحدث.

وما يدعم هذا الفهم لنصوص ابن عطية؛ ما نجده من توجيهات بلاغية للنص عند من سبقه أيضًا فالزمخشري –مثلًا– قال: ("فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً" فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما ، وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ، ويلحق بهما شراً وبلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره)(٧٩) .

زد على ذلك أنَّ المفسرين من بعد التزموا بهذه المفاهيم لكن بدرجاتٍ متفاوتة، فالقرطبي (ت٦٧١هـ) وغيره نقلوا قول ابن عطية، لكنهم اشترطوا معرفة دقيقة بسياق النص من جهة الظن الاجتماعي للمخلوقين والمخاطبين[٨٠].

إنَّ بناء هذا الفهم التأويلي هو منطلقنا في هذا المحور من البحث، فهو بحقيقته مرتكزًا على الطاقة الايحائية في النص وما يمكن أن يستخلصه القارئ من خلال اندماجه في سياق النص الايحائي مما يتيح له رصد مكامن النص الجمالية المتحققة نتيجة الاستعارة وتذوقها على نحوٍ طريف.

وكانت القيمة الإيحائية التعينيية– على ما يبدو– منطلقًا ثرًا عند المفسر ابن عطية لتأويل كثيرًا من الألفاظ تأويلًا بلاغيًا استعاريًا ومن ذلك ما بيَّنه المفسر من قوله تعالى: (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٨١). لقد حوت هذه الآية ملمحًا بلاغيًا مهمًا، فقد تناولها البلاغيون والمفسرون بالشرح والتحليل، وابن عطية الأندلسي احدهم، ويبدو أنَّه اطلع على توجيهات الزمخشري، فقام بتنظيمها وإعادة توجيهها على نحو أكثر مقبولية.

---

(٧٩)- تفسير الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢/ ٦٩٢)

[٨٠] ينظر تفسير القرطبي : ١١/ ٣٣، وينظر التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية : ١٦/ ١٣.

(٨١)سورة آل عمران ١١٧.

فوجه الزمخشري لفظة "صر" على ثلاثة أوجه: (أحدها أنّ الصرَّ في صفة الريح بمعنى الباردة ، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرة صرّ، كما تقول: برد بارد على المبالغة. والثاني: أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد فجيء به على أصله . والثالث: أن يكون من قوله تعالى: "لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ"[٨٢]، ومن قولك: إن ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل)[٨٣] . فيبدو أنَّ الاستعارة تقوم على الأصل التشبيهي بين الانفاق بغية المفاخرة وكسب الثناء؛ وبين الزرع الذي مر عليه الريح الباردة فذهب حطامًا، أو يجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ريح .

هذه الأفكار طورها ابن عطية فأختزلها بالاستعارة إذ قال: (وقوله تعالى "مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا" الآية معناه المثال القائم في النفوس من إنفاقهم الذي يعدونه قربة وحسبة وتحنثا ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباء منثورا وذهابه كالمثال القائم في النفوس من زرع قوم نبت واخضر وقوي الأمل فيه فهبت عليه " ريح فيها صر " محرق فأهلكته فوقع "التشبيه بين شيئين وشيئين ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما وليس الذي يوازي المذكور الأول وترك ذكر الآخر ودل المذكور أن على المتروكين وهذه غاية البلاغة والإيجاز)[٨٤]، فكشف عن أوجه بلاغية عدة: الأول، ويتعلق تشبيه الصورة ، وهو يقترب من الدلالة الاستعارية، وربما هذا ما حمله على اطلاق الاستعارة على التشبيه المركب المستشف من النص، والثاني، الاشارة صراحة إلى الاستعارة.

إنَّ المفسر نظر إلى قوله تعالى" مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا" من خلال عقد علاقة تصويرية تشبيهية معناها القائم في النفوس يقصد القربة لكنه حبط، وبين جملة تركيب ثان " زرع قوم نبت فهبت عليه ريح فيها صر محرقة فأهلكته.

إنَّ الجملة الثانية هي ما تعنيننا؛ وذلك لتأسيسها لفهم عدَّها مثالًا مستقلا عن التركيب التشبيهي الأول، هذا من جهة ومن جهة أُخرى فأنَّ دخول لفظة "صر" وهي لب الاستعارة لديه

---

(٨٢)سورة الأحزاب ٢١.

(٨٣)ينظر الكشاف، الزمخشري : ١/ ٣١٤.

(٨٤)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١/ ٤٩٥.

كون الصرّ هو الريح الباردة، فهنا الجامع التشبيهي يظهر من دلالة تشبيه هذه الريح الصرّ بصوت النار التي تخرج من جهنم –والعياذ بالله– وعلى هذا كان توجيه الاستعارة توجيهًا إيحائيًا لما تحمله كلمة "صرّ" من دلالة إيحائية جامعة بين قيمة صوتية تلاءم ذلك الصوت المنبعث من فوران نيران جهنم، فهو نفس جهنم في الزمهرير يحرق ما تحرق النار، وأخرى دلالية المتعلقة باستعمال الريح الباردة محل الريح المحرقة[٨٥] .

ورغم هذا التفصيل نجد أنَّ من المتأخرين ممن يتحدث عنها في معرض وصفه التشبيه، وإن كان يندرج في ضمن التشبيه الذي فيه الغرابة والعمق والتأمل الذي يعقد الصلات بين صفات وأحوال لها شأن، فالمراد تشبيه ما انفقوا في ضياعه بحرث كفار ضربته ريح فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة ، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يُظهر أركان التشبيه كما في التشبيه الأول للريح[٨٦].

لكن لانعدم جهود آخرين، فالطاهر بن عاشور استوفى القضية شرحًا وتفصيلًا، وبيَّن وجهة نظر ابن عطية وغيره إزاء الأسلوب البلاغي، فقال بصدد الآية الكريمة: (وإذا كان كذلك كانت أجزاء المركبين غير منظور إليها استقلالاً وأيَّها ذكرتَ في جانب المركب المشبَّه والمشبه به أجزأك ، وإنما كان الغالب أن يبدؤوا الجملة الدالة على المركب المشبه به بما يقابل المذكور في المركب المشبه نحو: "مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً"(٨٧)، وقد لا يلتزمون ذلك ، فقد قال الله تعالى:"مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر"، والذي يقابل ما ينفقون في جانب المشبه به هو قوله حرث قوم، وقال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل)(٨٨)، وإنما الذي يقابل الذين ينفقون (في جانب المشبه به هو زارع الحبة وهو غير مذكور في اللفظ أصلاً وقال تعالى: (كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم

---

[٨٥] ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١/ ٤٩٥.
[٨٦] ينظر الاتقان في علوم القرآن، السيوطي: ١٧٦/٢، تفسير البيضاوي لناصر البيضاوي : ١/ ٣٨١.
(٨٧) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي: .
(٨٨)المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي: والنص القرآني سورة البقرة ٢٦١.

الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب)[٨٩]، والذي يقابل الصفوانَ في جانب المشبه هو المال المنفَق لا الذي ينفق)[٩٠] .

الخاتمة

الفكرة العامة: رصد ما يعده استعارة أولًا، ومن ثم الموازنة مع التفاسير الأخرى(مثل تفسير الزمخشري؛ لأن هنالك من يفضله على الزمخشري، و ، والالوسي بوصفه جامعًا أيضًا لما سبقه وباتجاه فكري معين، ربما يخالفه، وتقييمهم للاستعارة نفسها، ويمكن التوسع في عرض أبعادها الأسلوبية، والسياقية.

---

(٨٩)سورة البقرة ٢٦٤.

(٩٠)التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور:٢/ ١١١..

المصادر والمراجع

(أنْ تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدّعيًا دخول المشبّه في جنس المشبّه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يختصّ المشبّه به)[٩١]

(تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه)[٩٢]

(سرّ بلاغة الاستعارة المكنيّة ما فيها من تشخيص وهبة حياة؛ وذلك أنّ كميّة الخيال فيها أكبر من كميّته في الاستعارة التصريحيّة، من حيث إنّ المكنيّة صورة خياليّة أصليّة ملحقة بها صورة خياليّة فرعيّة هي قرينتها التخييليّة)[٩٣].

يكون في الاستعارة (الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفيّة بادية جليّة)[٩٤].

---

(٩١) مفتاح العلوم، للسّكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص٣٦٩.

(٩٢)البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج١، ص١٥٣.

(٩٣)البلاغة الاصطلاحيّة، د. عبدة عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٦٦.

(٩٤) أسرار البلاغة ٤٣.